الأناجيل
The Gospels
مقدمة لدراسة الأناجيل

يشعر كثير من قراء الأناجيل[1] Gospels بحرج وحيرة إلى حد الارتباك الذهنى عندما يتفكرون فى معنى بعض الروايات الواردة فى بعض الأناجيل لوصف أحداث معينة . ويشعرون بنفس الحرج والحيرة والارتباك الذهنى عندما يجرون مقارنة بين ما يتضمنه هذا الإنجيل وذاك الإنجيل من وصف مختلف لحدث معين ، يعرض له بالوصف أكثر من إنجيل . إن هذه الملاحظة قد أشار إليها الأب روچيه father Roguet فى كتابه المعنون بعنوان : «مقدمة لدراسة الأناجيل initiation to the Gospels وهو الكتاب الذى أصدرته دار دى سوى فى باريس عام ١٩٧٣ بعنوان فرنسى هو Initiation à L'Evangile

إن التجربة الثرية التى خاض هذا الكتاب غمارها ومؤلفه الذى كان لسنوات طويلة مُكلَّفًا بالرد على أسئلة القراء بجريدة أسبوعية كاثوليكية قد سمحت لمؤلف هذا الكتاب أن يدرك مدى الاضطراب الذى يشعر به قراء الأناجيل من جراء قراءتهم لها . ولقد كانت الأسئلة تنهال عليه من أوساط اجتماعية وثقافية شديدة التنوع ، وهى أسئلة كانت تنصب على نصوص يراها القراء «مبهمة غير مفهومة أو يرونها متناقضة أو عبثية أو فاضحة» (absurd and scandalous) مما لا يدع مجالا للشك فى قراءة لكل الأناجيل من شأنها أن تثير كثيرا من الاضطرابات فى أعماق المسيحيين .

إن هذه الملاحظة قريبة العهد فى الانكشاف والظهور ، إذ أن الأب روچيه كان قد نشر كتابه فى عام ١٩٧٣ .

وإلى عهد قريب كان أكثر الناس المسيحيين لا يعرفون من نصوص الأناجيل إلا بعض المقاطع المختارة التى تقرأ عليهم أو يرتلونها فى مناسبات القداس والعظات الكنسية فى المناسبات الدينية ، ولم يكن يتسنى لغالبية المسيحيين أن يدرسوا كامل نصوص الأناجيل بكاملها فى الغالب الأعم لو استثنينا حالة البروتستانت . وكتب التعليم الدينى المسيحى لا تحتوى فى العادة على شىء أكثر من مقاطع مختارة من الأناجيل دون اهتمام بتتبع النص الكامل لأى إنجيل . إننى أثناء دراستى

---

(١) المقصود بالأناجيل هو ما يحويه العهد الجديد New Testament من الكتاب المقدس Bible الذى يحوى أسفار العهد القديم Old Testament أو التوراة Torah . والعهد القديم أو التوراة هى كتاب اليهود المقدس . وإذ لم يعل المسيح -عليه السلام- كتابا مقدسا على أحد من الناس إبان حياته ، ولم يكتب بنفسه كتابا مقدسا ، اعتمد المسيحيون الأوائل على التوراة وأسفار العهد القديم ككتاب مقدس لديهم ، وبعد عشرات السنين من نهاية شأن المسيح مع قومه ظهر ما يعرف بالأناجيل يتضمنها العهد الجديد وهى أربعة أناجيل هى إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا . (المترجم) .

بالمرحلة الثانوية من التعليم وقعت يدى على النصوص الكاملة لمؤلفات أفلاطون وفرجيل ، ولم تقع يدى أبدا على النص الكامل لأى إنجيل بالعهد الجديد على الرغم من أن النص اليونانى للعهد الجديد ربما يكون مفيدا. وبعد ذلك بزمن طويل عرفت لماذا لم يكن المدرسون يطالبوننا بترجمة نصوص مطولة من الكتاب المقدس كما كانوا يفعلون بالنسبة للمؤلفات اليونانية القديمة الأخرى . لقد كان تكليفنا بترجمة نصوص مطولة من الكتاب المقدس من شأنه أن نطرح عليهم أسئلة محرجة لا يستطيعون الرد عليها . إن هذه الاكتشافات التى تتم عند القراءة المطولة لنصوص كاملة للإنجيل Reading in extenso قد أدت بالكنيسة أن تهب لمساعدة قراء الإنجيل لكى يتغلبوا على أسباب حيرتهم وارتباكهم تحت شعار رفعته الكنيسة يقول : «إن كثيرا من المسيحيين يحتاجون أن يتعلموا كيف يقرءون الأناجيل» فيما يلاحظ الأب روچيه . وسواء يوافق الإنسان أو لا يوافق الأب روچيه فى هذا الصدد فهو جدير بالإعجاب لمجرد إبرازه هذه المشكلة ومحاولته التصدى لإيجاد حل لها . ولسوء الحظ ليس هذا هو الشأن فى كتابات المختصين فى علوم المسيحية إذ يتجاهلون المشكلة أصلا .

فى الطبعات المتعددة للأناجيل المعدة للانتشار الواسع فى أنحاء العالم نجد أن الملاحظات التمهيدية فى مقدمة هذه الطبعات تعرض فى غالب الأحيان اتجاهات تحاول إقناع القارئ بعدم وجود أى مشاكل تتعلق بشخصية كاتب هذا الإنجيل أو ذاك ، أو وجود أى مشاكل تتعلق بصحة النصوص المتعارضة بذات الإنجيل ، أو المتعارضة مع نصوص فى إنجيل آخر بشأن نفس الموضوع ، وذلك على الرغم من وجود هذه المشاكل . إننا نجد هذه الملاحظات فى مقدمة طبعات الإنجيل تقدم الافتراضات المشكوك فى صحتها على أنها أمور يقينية Often they present as a certainty what is pure hypothesie . وهذه الملاحظات التمهيدية فى مقدمة طبعات الإنجيل تقدم كاتب هذا الإنجيل أو ذاك الإنجيل باعتبار أنه شاهد عيان على الأحداث ، "an eye-witness of the events" بينما تؤكد الدراسة النقدية على العكس من ذلك أنه لم يكن شاهد عيان على الأحداث بأى حال، ومن المستحيل أن يكون بالفعل شاهد عيان eye-witness . إن المسئولين عن إصدار طبعات الكتاب المقدس يقللون بشكل مبالغ فيه الفترة الزمنية الموجودة بين انتهاء شأن المسيح مع قومه وبين زمن كتابة نصوص الأناجيل[1] إنهم يهدفون إلى إيهام الناس بوجود صيغة واحدة للأناجيل المختلفة اعتمدت على تراث شفهى على الرغم من أن الدارسين المختصين قد أثبتوا أن هذه النصوص قد تعرضت لتغييرات وتعديلات كبيرة وهامة وخطيرة . وهم يتحدثون عن صعوبات التفسير لقصور وضعف الفكر البشرى عن إدراك حقيقة المعانى ليصرفوا النظر عن وجود التناقض

(١) من المعروف أن المسيح -عليه السلام- لم يكتب أى واحد من الأناجيل الأربعة المعروفة بيده ، ولم يملِ نصوص أى واحد من الأناجيل الأربعة المعروفة على أحد ممن تنسب إليهم هذه الأناجيل . وبدأ ظهور نصوص أقدم الأناجيل بعد انتهاء شأن المسيح مع قومه بأكثر من نصف قرن من الزمان . (المترجم) .

بين النصوص فى الأناجيل ، وهى تناقضات كبيرة تقفز تحت عيون كل من يقرأ ويدقق ويتأمل ويفحص بدقة ومعقولية ، وفى القواميس المقطبة الخاصة بنصوص الأناجيل يجد الإنسان فى العادة مقدمة طافحة بعبارات التأكيد تحاول أن تخفى على القارئ كل ما يستحيل تصديقه وتخفى التناقضات الصارخة والأخطاء الواضحة : improbabilities, contradictions or blatant errors

وهى تلك التناقضات والأخطاء التى يتم إخفاؤها فى مناقشات مضللة بارعة ذات طابع متهافت على التبرير وهكذا يظهر هذا النوع من الكتابات ذات الطبيعة المضللة of an apologetic nature لمثل هذه المقدمات .

إن الآراء والأفكار التى سنناقشها فى الصفحات التالية ستدهش – دون ريب – أولئك القراء غير الملمين بمشاكل نصوص الأناجيل . وقبل الدخول فى هذه التفاصيل – على كل حال – سأقدم مثالا واضح الدلالة .

إن القديس «متّى» والقديس «يوحنا» لم يتحدث أى منهما عن صعود المسيح إلى السماء Je-sus's Ascension أما القديس «لوقا» فهو يجعل يوم صعود المسيح إلى السماء هو نفس يوم قيامة المسيح Resurrection ومع أن لوقا هو كاتب «أعمال الرسل» فهو يذكر فى أعمال الرسل أن صعود المسيح إلى السماء قد تم بعد أربعين يوما من قيامة المسيح أما «مرقس» فإنه يشير إليه دون تحديد اليوم الذى صعد فيه المسيح إلى السماء وذلك فى غضون خاتمة إنجيل مرقس التى تعتبر اليوم غير صحيحة . وبناء على ذلك لا تقف حقيقة هامة مثل صعود المسيح إلى السماء على قدم وساق . وعلى الرغم من ذلك نجد أن مفسرى الكتاب المقدس لا يكادون يعيرون التناقض فى مثل هذه المسألة الهامة أى التفات .

إن أ . تريكو A. Tricot فى قاموس العهد الجديد الذى قام بوضعه وقامت بطبعه ونشره دار كرامبون Crampon وهو قاموس واسع الانتشار لم يشر بحرف واحد إلى هذا التناقض بشأن هذه المسألة المهمة المتعلقة بصعود المسيح إلى السماء . أما طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة "Synopse des Quatres Evangiles" التى أشرف على تحريرها الأبوان بينوا وبوامار R . R . P . P Benoit et Boismard الأستاذان بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس فهى تطلعنا فى الجزء الثانى منها (ص٤٥١–٤٥٢) أن التناقض عند لوقا فيما بين الإنجيل المنسوب إليه وبين أعمال الرسل المنسوبة أيضا إليه مرجعه إلى حيلة أدبية !

ماذا عساها أن تكون هذه «الحيلة الأدبية» ؟ أقل ما يقال هو أنه من الصعب فَهْمُ هذه الحيلة الأدبية ، ومن الصعب الكشف عن وجه وجدوى التحايل فيها!

أما الأب روچيه فيبدو أنه لم يقبل بهذه الحيلة الأدبية ، وهو يتقدم لنا بتبرير فريد فى بابه عندما يقول فى كتابه «مقدمة إلى الإنجيل» بصفحة (١٨٧) من طبعة (١٩٧٣) ما نصه : «إن المشكلة

هاهنا ، ،كما هو الشأن فى كثير من المشاكل المشابهة لا تبدو غير قابلة للحل إلا إذا أصر المرء على التمسك بحرفية الكتاب المقدس ولم يأبه بالدلالة المقصودة . إن الهدف الحقيقى لنصوص الكتاب المقدس فى هذه الصدد ليس هو الوقوف عند حل التناقض الظاهرى للنصوص وإنما المقصود هو البحث عن «النية الدينية» لمقاصد هذه النصوص الدينية The Theological intentions وهى المقاصد الغامضة بالنسبة لنا ؛ إذ أنها تقول لنا أشياء مفهومة لنا من خلال إمكانات عقولنا» .

كيف يمكن أن نكتفى بمثل هذا التفسير ؟ إن المغالطات من هذا النوع يستحيل أن تصلح إلا لأناس يؤمنون إيمانا دجماطيقيا دون قيد ولا شرط ودون أى نوع من البحث عن معقولية[1] ما يُطْلَب منهم الإيمان به .

إن أهمية المحاولة التبريرية للأب روچيه تكمن أساسا فى اعترافه بوجود «حالات مشابهة كثيرة» لمسألة صعود المسيح إلى السماء الواردة فى بعض الأناجيل . ولذلك فمن الضرورى أن نعرض للمشكلة بشكل شامل من كافة وجوهها ومن صميم جذورها بكل موضوعية . ومن الحكمة أن نبحث عن توضيح للمشكلة من خلال دراسة الظروف التى كُتبت فيها الأناجيل ودراسة المناخ الدينى الذى كان سائدا عند كتابة كل منها . إن توضيح التعديلات التى تم إدخالها على الصيغ الأولى للتراث الشفهى الذى نتجت عنه الأناجيل والتحريفات التى حدثت لنصوص الأناجيل التى وصلت إلينا "... the way texts handed down to us have been corrupted" .

كل ذلك من شأنه أن يخفف عنا الشعور بالدهشة أمام العبارات المبهمة غير المفهومة والمتناقضة التى لا يقبلها العقل ، وأيضا العبارات التى تصل إلى حد العبث وإلى حد استحالة أن تتسق أو تتفق مع الواقع العلمى أو مع غيرها من نصوص الأناجيل ذاتها ، وهذه الملاحظات تدل بالقطع على إسهام ومشاركة البشر فى إنشاء وصياغة وتحرير نصوص الأناجيل مما اقتضى التعديلات التى تم إدخالها عليها بعد ذلك .

وفى واقع الأمر ، وفى غضون العقود الأخيرة من هذا القرن ظهرت دراسات حديثة لنصوص الأناجيل بروح بحث موضوعية . وفى كتاب ظهر حديثا للأب كانينجسر R . P Kannengiesser الأستاذ بالمعهد الكاثوليكى فى باريس بعنوان: «قيامة المسيح وبعث الإيمان -foi en la Resurrec" tion, Resurrection de la foi" نجد لمحات تدل على هذا التغيير المهم نحو الدراسة الموضوعية لنصوص الأناجيل إذ يقول المؤلف :«يكاد الشعب المسيحى المؤمن ألا يعرف شيئا عن هذه الثورة التى حدثت فى مناهج تفسير الكتاب المقدس منذ عصر البابا بيوس الثانى عشر

(١) غير المعقول يقال بكلام معقول . وهذا هو التناقض بعينه . هذا هو صميم المشكلة . هذا هو الخلط بين اللامعقول والمعقول . هذه هى محاولة إلباس اللامعقول لباس المعقول مع خطر الدهشة وكافة مظاهر التعجب ورفض التصديق بسبب اللامعقولية . لامعقول ولكنه واجب التصديق لدواعى الإيمان ولقصور العقل البشرى عن الإدراك . (المترجم) .

(١٩٣٩-١٩٥٨). إن هذه الثورة التى يتحدث عنها المؤلف إنما هى ثورة حديثة ولكنها ثورة حقيقية بدأت آثارها تصل إلى كثير من المسيحيين المؤمنين ويقوم بها بعض المتخصصين فى علوم المسيحية الذين يؤمنون بضرورة إفساح المجال لروح «التجديد "spirit of revival"» ويقول المؤلف أيضا :«إن هذه الثورة فى مناهج تفسير نصوص الكتاب المقدس تفتح الطريق كثيرا أو قليلا لحدوث «ثورة» فى طرق ومناهج الوعظ والإرشاد المسيحى» .

يحذرنا الأب كانينجسر من أن «الإنسان منا لم يعد من الضرورى أن يأخذ بحرفية الأحداث التى ترويها الأناجيل عن المسيح "One should never take literally facts reported about jesus by the Gospels" .

وذلك لأن هذه الكتابات إنما كُتبتْ «فى ظرف خاص an occasion» أو بتأثير خصومة دينية بين أصحاب مذاهب دينية متعارضة (to combat) كتب فيها أحد أطراف الخصومة الدينية نصوصا معينة عن المسيح لتعضيد وجهة نظر الفريق الذى ينتمى إليه فى مواجهة الفريق الآخر . وفيما يتعلق بشأن مسألة صعود المسيح إلى السماء ، وهى موضوع كتابه يؤكد لنا كانينجسر أن أى واحد ممن ينسب إليهم كتابة الإنجيل لا يستطيع أن يدعى أنه كان شاهد عيان eye-witness وهو بذلك يدع للفهم الضمنى أن يتطرق إلى أن هذا هو الشأن فى بقية المسائل الهامة المتعلقة بكل حياة المسيح إذ يمكن النظر إليها على هذا الأساس إذ إنه ليس هنالك أى حوارى من تلاميذ المسيح وأتباعه – باستثناء يهوذا الاسخريوطى – يصح القول بأنه قد صاحب المسيح حتى لحظة انتهاء شأنه مع قومه على الأرض .

ها نحن أولاء إذاً نبتعد تماما عن تلك المواقف التقليدية التى كانت تؤيدها المجامع الكنسية حتى مجمع الفاتيكان الثانى منذ عشر سنوات كما يتضح ذلك من الكتب الحديثة الصدور الموجهة إلى عامة الناس المؤمنين من المسيحيين . إن الحقيقة تخرج إلى النور رويدا رويدا .

وليس من السهل على الناس تقبل هذه الحقيقة حيث إن التقاليد القديمة الشائعة بين الناس لها ثقلها المعروف ويدافع عنها الكثيرون بشراسة . وإذا أردنا أن نتخلص من ثقل وتأثير هذه التقاليد الموروثة بصدد نصوص الأناجيل فمن الضرورى أن ندرس المشكلة من جذورها وذلك بدراسة الظروف التى كانت موجودة عند بدء ظهور المسيحية ....